نجيب الريحاني

شابّ موظف فى إحدى الشركات الأجنبية ، يعمل هناك بأجر متواضع ، لا همّ له إلا أن يحيا فى بيئة عمله حياة طيبة ، وليس له من هدف إلا أن يحظى بمكافأة أو درجة ، وقد يسمو به التمنى إلى أن يحلم بمكان الرياسة فى القسم الذى يعمل فيه ، ليستمتع بما يستمتع به الرؤساء من سلطة وجاه .

ذلك الشاب هو « نجيب الريحانى » ، أو — على الأصح — « نجيب ريحانة » فقد كان مشهورا بهذا الاسم قُبيل الحرب العالمية الأولى .

تخرّج فى إحدى المدارس الفرنسية ، فتزوّد بثقافة أجنبية ، أغرته بالمضىّ فى المطالعة ، يشغل بها أوقات فراغه . وألفى نفسه يبذل الموفور من عنايته للأدب التمثيلىّ ، إذ آنس من أعماق قلبه استجابة غامضة لهذا اللون من الأدب الفنىّ .

ولم يلبث ذلك الميل أن ذكا وتوقّد ، فأصبحت المسرحيات تملك عليه نزعة المطالعة ، وإذا هو يرتاد دُور التمثيل التى كانت قائمة فى هـذا العهد ، ويترقب قدوم الفرق الأوربية التى كانت تزور « مصر » فى مَطافها بين الحين والحين .

واستبدّ به الميل إلى مشاهدة التمثيل ، حتى أوقعه ذلك فى مَآزق وأزمات مالية ليس له إلى احتمالها من سبيل . وكثيرا ما اضطر لضيق ذات يده أن يتسنم أعلى المقـــاعد فى دور التمثيل ، حتى لا يُحْـرَمَ شهودَ ما هو معروض من المسرحيات ، فإذا رجع إلى داره بعد المشاهدة والتفرج ، ومضى فى حجرته يخلع ثيابه ، رأيته قد وقف تجاه المرآة يتفحص قسمات وجهه ، ثم انطلق يحاكى مشهدا من تلك المشاهد التى ملأت عليه سمعه ، وخلبت لبّـه !

وقد يغْفُـلُ عن وقته المتأخر من الليل ، فيتصايح عالى الصوت ، ويأتى بحركات تمثيلية ثائرة ، فلا يعتم أن يسمع طَرْقاً شديدا على الباب ، وأصواتا جَـهيرة من هنا وهنالك ، تزمجره وتنهاه عن التمادى فيما هو فيه ، إبقاء على سكينة الليل ، وصَوْنا لراحة النُّوَّام . . .

فيثوب إلى رشده ، وينتبه إلى أنه ليس على منصة المسرح ، وإنما هو فى عُقْـر داره ، بين حوائط حجرته ، قريبٌ من سريره ،

فلا يملك إلا أن يتسلل مستخفيا تحت لحافه ، مطلقا شخيره الحادّ ، موهما طُرّاق الباب أنه فريسة كابوس مزعج وحُلم مثير !

وعلى مرّ الأيام ، عرف طريقه إلى « قهوة الفن » مُلتقى المولعين من الناشئة بالتمثيل وما إليه ، فما أسرع أن اختلط بهم ، واندسّ فى مجالسهم ، يشبع نهمه إلى الحديث والمناقشة والنقد ، فى ذلك الجوّ الصاخب الذى يتسع لكل ما يقال ، كما يقال !

وصارت « قهوة الفن » مثابته الحبيبة إلى نفسه ، يستمرىء الحياة فيها إذا حضر ، ويهفو إليها إذا غاب .

وكان حين يقصد مكان عمله ، فى النهار ، يحس التراخى والفتور . . . وطالما أغفل الأوراق تَسْبَح على مكتبه ، ويموج بعضها فى بعض ، وانطلق هو يسبح فى آفاق أخرى ، آفاق المسرح الشائق بأخيلته ومباهجه وأمجاده .

وانتبه مرة إلى أن أقلام الرصاص التى كانت تزحم مكتبه لم يبق منها قلم يصلح للكتابة ، فقد جعل يقرض أطرافها فى أوقات أحلامه ، لا يعى ما يفعل ، حتى أحالها أنقاضا متآكلة !

وشدّ ما كان يحرص على أن يدسّ المسرحيات بين أوراق عمله ، وينكفىء عليها يقرؤها فى جدّ وشغف ، موهما رفاقه أنه منصرف إلى إنجاز ما بين يديه من الأوراق .

وأقبل مرة على مكان عمله ، فراعه أن موظفا آخر قد حل محله فى مكتبه ، فراح يتبيّن جليّة الأمر ، فبرز له الرئيس يُعلمه أن الشركة ضاقت ذرعا بأقلامه المتآكلة ، وبتلك المسرحيات التى يخفيها بين الأوراق !

فخرج كاسف البال ، يفكّر فيما نابه ، لا يدرى إلى أى مصير يُساق ؟

ولكنه لم يكد يتقدم بضع خطوات فى الشارع ، حتى أحس بأن الدنيا قد أشرقت لعينيه ، وأن الآفاق قد انفسحت أمامه ، وكأنما قد انزاح عن كتفيه عبء فادح ... فانبرى يقطع الطريق بخطا ثوابت ، وهو يتلفت يَمْنَة ويَسْرة ، مفترّ الثغر ، يهتم بقوله :

كان ما كان ، ورزقى على الله !

وشعر بشىء يتحرك فى جيب سترته الأعلى ، فإذا قلمه الرصاص يتطلع إليه مدهوشا حنِقا ، وكأنه يأخذ عليه ذلك المرح الطارىء فى موقف إشفاق وتحسّر . فاجتذب القلم من جيبه ، فإذا هو أحد تلك الأقلام المتآكلة المعضوضة ، فأمسك به وقتا ينظر إليه فى سخرية وتهكم ، والتفت فى وقفته صَوْب دار الشركة ، وقذفَ بالقلم نحوها فى مقت وازدراء ... ولعل القلم قد أصاب

المرمى ، فرق إلى الحجرة عائداً إلى مكانه من المكتب ، ليُسْلِمَ زمامه إلى من هو أحق به !

توالت الأيام على الشاب متنقلا بين « قهوة الفن » وحجرة بيته ، فهو فى القهوة يلقى رفاقه ، ويهبّ من أحاديثهم ، وهنالك فى الحجرة يطبَع على مرآته مشاهد التمثيل التى تعجّ فى رأسه . وما يزال يفعل ، حتى يثور به الجيران ، فيلوذ بالفراش ، ملقيا تبعة إقلاق الراحة على ذلك الكابوس المخيف الذى لا يدَ له فى جلبه ، ولا قدرة له على دفعه !

قضى الشاب فترة يحيا حياة العُطلة والطلاقة ، وكلما تقدمت به الأيام ألفى جيبه يتداعى ، وأحس على الرغم منه قلقا يساوره ، وكأن هاتفا يصيح به :

إلى أين ؟

ولكن الشاب لا يلبث أن يستعيد طمأنينته ، ويُمِدُّها بتلك الحيوية وذلك البشر اللذين يكمنان فى طوايا نفسه ، فيردّد قوله :

فرج الله قريب !

ويوما وجد نفسه قد احترف التمثيل فى إحدى الفرق ، فراح يعمل فى همة ومضاء ، وأخذ يتولى أدوار المآسى والفواجع ، ولعله أبى أن يقوم بتمثيل أدوار المهازل والأفاكيه ، ترفعا بنفسه عن التدلى إلى مواقف لا تليق بممثل خليق بالاحترام !

وعلى الرغم مما بذل عثلنا الشاب من جهد ومثابرة واهتمام ، فقد أخلفه التوفيق ، ولم يلقه النظارة بكبير التفات ، وزاد من كربته أنه أحس الهمز واللمز يبزّ حوله ، وأعين الرؤساء ترميه بالنظر الشزر .

وحل يوم خرج فيه الشاب من تلك الفرقة ، وقد أُلْقِيَ إليه أجره ، مشفوعا بالرجاء إليه ألا يعود !

وانصرف الشاب كاسف البال ، مهموم الفؤاد ، ولكنه ماعتم أن التفت إلى المسرح يودّعه بنظرة لوم وعتاب ، وهو يهمهم :

أنكرتَ اليوم قدري . لا عليّ . أرض الله واسعة !

ثم رنّتْ ضحكته ، وأسلم ساقيه للطريق .

عاود وكرّه فى « قهوة الفن » وطال تعطله ، وكلما حزبه أمره . واحلولكت الدنيا أمام عينيه ، فزع إلى كوامن المرح فى أعماق نفسه ، يغالب بها الضيق والبأساء !

هذه « قهوة الفن » تهيء له متعة النفس وأنس الحديث ، ولكنها لا تُسْمن ولا تغنى من جوع . . .

وطاف برأسه طائف يغريه بأن يعود إلى حيث يستغفر قلمه الرصاص المعضوض ، ويقسم له على أن يكرم صحبته ، وأن يحميه من عبث أسنانه . . . ولكن منظر هذا القلم الجامد العَبُوس

كان ينفتر من رأس الشاب فكرة العود إلى الدفتر والحساب ..!

وذات مساء كان يجلس فى « قهوة الفن » متخاذل الأوصال ، يهيم فى أخيلة فساح ، وهو يحاول أن يستبقى عُقُب اللفافة بين أنامله ما وسعه أن يستبقيه ، فسمع صوتا يحييه ، فالتفت صَوْبَ الصوت ، فرأى صديقا لم يره منذ فترة ، ومرت لحظات عامرة بألوان الحفاوة والتهلل ، ثم أقبل الصديق الزائر على صديقه يتفحصه ويتفرس فى ملامحه ، ثم قال :

كم قرشا فى جيبك الآن ؟

فَذَهِلَ الشاب مما سمع ، ولكنه ابتسم لصديقه قائلا :

أتراك اخترتنى هدفا لمشروع اقتراض ؟

فلاطف الصديق كتف الشاب ، وهو يقول :

ما كان ليخطر ببال أحد أن يطلب منك شيئا . . . إن الإفلاس ليتلألأ على محياك !

— فيم سؤالك إذن عما يحتويه جيبى ؟

— ليطمئنّ قلبى !

— ماذا تريد منى ؟

— ألا يهفو فؤادك إلى أن تكسبَ الليلة « ريالا » ؟

— من يزهدُ فى « ريال » ؟

— إذن هيّا بنا . . . عِدْنِي أن تحقق ما أرغب إليك فيه !

— لك ما تشاء !

فى هذه الأيام كانت « القاهرة » قد أضافت دَعِيًّا من أدعياء العلم ، ومُشَعْوِذا من مشعوذة الفن ، يعرض على الجمهور فى أحد المسارح المعروفة ضروبا من التنويم المغنطيسىّ والكشف عن سرائر النفوس . . . وكان من خفايا البرنامج أن يَدُسّ هذا الرجل بعض أعوانه بين مقاعد النظارة ليعوِّل عليهم فى الاستجابة له والتأثر به أثناء قيامه بالشعوذة والتمويه . . . وكان يرسل من يتصيّد له هؤلاء الأعوان من القهوات وأندية الليل ، فشاءت العناية الإلهية أن يكون « نجيب ريحانة » فى هذه الليلة كَبْشَ الفِداء !

وتلقى الشاب من المشعوذ تعليماته ، وانحشر بين المتفرجين كأنه واحد منهم . . . وكان البَرْنامج أن يتقدم الشاب يعرِض نفسه على المشعوذ ليُجْرِى عليه تجاربه ، فاعتلى مِنصة المسرح أمام جمهور زاخر متطلع إلى ما يكون ، وطفِق المشعوذ يُجْرى عليه إيهامات التنويم ، فقام الشاب بدوره المتفق عليه فى أسلوب طريف وحركات متقنة أثارت إعجاب الجمهور ، وأرادته على الضحك والمراح . وما لبثت النظارة أن احتدّ تصفيقهم ، ونَسُوا أنهم يتطلعون إلى واحد من المتفرجين ، لا إلى ممثل يقوم بدور ينتزع الضحكات

صدرَ الشاب عن المسرح يفكر في شأنه ، وما مر به الساعة من أحداث . . .

لقد نهض بتمثيل دوره ، لم يبذُلْ عناء ، ولم يتصنع موقفاً ، وإنما ترك نفسه على سجيَّتها في غير تكلف ولا تعمّل ، فكان ماشهده من توفيق لم يظفر به من قبل وهو يبذل قُصارى الجهد أثناء تمثيله أدوار المآسي والفواجع !

فَقَرَّ في ذهن الشاب أن أقوى دِعام النجاح في التمثيل هو الارتكاز على الطبع ، ومجانبة التصنُّع ، وتوخي الصدق في الأداء . . .

وفطن إلى حقيقة عَزَبَتْ عن باله ، فيما مضى من أيامه ، تلك هي أن له موهبة في أداء الأدوار التي تقوم عليها المهازل والأفاكيه ، ففي مِزاجه الرُّوحي استجابة لهذا اللون من الفن التمثيلي الجميل .

ولطالما كانت جِسام الحقائق رَهْنَ ملابسات الحياة وسوانح الأحداث ، لا تتكشف قسراً بالقصد والالتماس ، قَدْرَ ماتتكشف اتفاقا واعتباطا في مَجْرَى الشئون !

واعتاد الشاب ، قهوة الفن ، يقضي سهراته فيها وهو يفكر في جديد كَشْفِه عن خفايا موهبته ، وعما يتطلبه التمثيل الحق من التزام الصدق في الأداء ، والحذر من تزوير المواقف والانفعالات .

وماهي إلا أيام حتى دُعِيَ إلى المشاركة في التمثيل عضواً في

فرقة جوّالة ، فاشترط أول ما اشترط أن يُبتاعَدَ بينه وبين مواقف الجد وأدوار المآسى والفواجع . فنزلت الفرقة عند شرطه ، ووكلت إليه ما رغب فيه من هزلىّ الأدوار ، فأصاب فيها موفور النجاح ، وقرّ فى ذهنه أنه لم يُخلق إلا للاضطلاع بهذه المواقف ذات الطابع الفكه التى تثير حولها زوبعة من التضاحك .

وعجب أول الأمر من أن هذه المواقف على بساطتها ونزولها فى المحل الثانى هزمت أمامها مواقف البطولة الحافلة بالشئون الخطيرة والأقدار الحاسمة ، تلك المواقف التى تدوّى فيها أصداء الصراخ والضجيج ، وتنهمر حولها شآبيب الدموع . . . !

ولقى الشاب من رفاقه فى الفرقة غير ما كان يتوقع ، فقد تنكّروا له ، وازورّوا عنه . ولم يلبث أن تعالى حوله فحيح الدسائس والأضغان .

ويوما وجد الشاب نفسه قد أُلقِىَ إليه أجرُه آخر السهرة ، مشفوعا بالرجاء إليه ألا يعود . . .

فأدبر عن الفرقة ، تتخايل على فمه ابتسامته الفلسفية الخالدة ! والتقمته «قهوة الفن» يجلس فيها جلسته المعهودة ، ملقيا ظهره إلى الكرسى فى غير اكتراث ، محدقا فى السماء يستكنه فى أبراجها خوافى الغيب ، ويتعجب من تصاريف القدر وطبائع البشر ، مناجيا نفسه بقوله :

أخرجنى الإخفاق من الفرقة الأولى ، وأخرجنى النجاح من الفرقة الأخرى ، فالإخفاق والنجاح سيّان فى هذه الحياة الحمقاء ، وها أنذا أصير منهما إلى مَعِدة خاوية !

وليلة بينما كان غريقَ هذ العباب من التفكير . أحسّ قدوم رفيقه «عزيز عيد» . . .

دخل بقامته القميئة ، وعوده الضامر ، تسوقه خطاه الشاردة ، وهو يتلفت حوله لفتاته الذاهلة ، وعلى صلْعَته اللامعة تنعكس الأضواء . . .

فأقبل على صديقه الشاب يحييه تحيته الحالمة ، ثم اتخذ مقعده عن كثَب منه ، وما لبث أن قال كأنه يحدث نفسه . دون أن يواجه الشاب بقوله :

فيم تفكيرك ؟

فأجاب الشاب ، ونظره عالق بأبراج السماء :

أفكر فى ذلك النحس اللّجُوج الذى يتعشقنى لوجه الله !

فنهض «عزيز» يَذْرع أديم القهوة بخطاه المرهلة ، ويداه معقودتان إلى ظهره ، وظل وقتا فى جيئة وذهوب ، . إذا به يقف أمام الشاب يحدق فيه ، ثم صاح :

ما اسمك ؟

ففغر « نجيب » فاه من عجب ، وقال له متضاحكا :

أحسبتَ لى فى كل يوم اسماً جديداً ؟ !

ـــ أجبنى فى غير مجادلة .

ـــ اسمى « نجيب » .

ـــ أكمل اسمك . . .

ـــ « نجيب ريحانة » .

فضرب « عزيز » بيده كتف الشاب ضربة أزعجته ، وقال :

تلك هى المسألة كما يقول « شكسبير » . . إن لى فى النحس والسعد رأياً لايخيب ، وأنا زعيم لك بأن فى الأسماء أسرارا كطوالع الأفلاك . . .

ـــ لا أدرى إلى أين تذهب بى وبك فلسفتك العرجاء !

وانطلق الشاب يقهقه ، فبدا « عزيز » فى وقفة جدّ واهتمام ، وقال :

الموقف لايحتمل هزلك الرخيص . . . قولٌ فَصْل . . . إن أردت النجاح فغيّر اسمك . . . لاأقصد تغيير اسمك كله ، ولكن بعض التعديل . . . وبعبارة أخرى : يجب أن نخرج اسمك إخراجاً جديداً . . . لقد اخترت لك اسم « الريحانى » بدلا من « ريحانة » . فى كلمة « الريحانى » رفعة وجدّة وفنّ . . .

فصاح « نجيب » :

لقد أَنَبْتُكَ عنى فى تغيير اسمى ، فافعل به مابدا لك . . .

ــ حسناً . . . استقبل منذ اليوم بواكير سعدك !

وأدار « عزيز » أحد المقاعد ، وجلس عليه ، واضعاً ذراعيه على ظهر المقعد أمامه ، وقال :

علينا أن نساير الزمن ياصديق ... الاسم الفنى ذو الرنين اللطيف يجب أن يحل محل الاسم العتيق الذى سحب عليه الزمن ذيله .

واندفع يلقى على صديقه محاضرة فى فلسفة الأسماء ، وصلتها بالفن ، وما لهذا كله من حظوظ فى السعود والنحوس !

أصغى « نجيب » لهذه المحاضرة ، وانتهى به الأمر إلى التثاؤب والتمطّى ، وخشى أن يسقط رأسه تحت وطأة النعاس ، فبذل مابقى من جهده فى قوله :

ألا تخبرنى ما هو كسبى من تغيير اسمى ؟

فوقف « عزيز » منتفخ الوقفة ، وقال :

أول الغيث أنى مُلْحِقُك بفرقتى التى أعمل على تأليفها . . .

فطار النوم من جفنى « نجيب » وأقبل على صديقه يسائله فى شأن تلك الفرقة المنشودة ، وما يُعِدّه من بَرْنامجها الفنى فى عالم التمثيل .

ألّف « عزيز » فرقته التمثيلية الهزلية الجديدة ، فسطع فيها كوكبان : « روزالي يوسف » و « نجيب الريحاني » .

وكانت الروايات التي تعرض على المسرح مهازل مترجمة من نوع « الفودفيل » ، فاجتذبت الفرقة جمهور النظارة على اختلاف طبقاته ، وأصابت بادئ الأمر نجاحا كاد يخمل الفرق الجدّية الوطيدة .

ولكن ثمة عامل دفين وقف تيّار هذا النجاح ، ولم يكن ذلك العامل وليد منافسة أو مناوأة من العُداة والحسّاد ، وإنما كان مرجعه إلى جرثومة التحسس التي اتخذت من « عزيز » مرتعاً خصْبا تنمو فيه وتترعرع . . . ولقد كان « عزيز » يطارد هذه الجرثومة في نفوس رفاقه ، بَيْد أنه كان ينسى نفسه ، ومن ثم لقيت الجرثومة في تلك النفس ملاذَها الأمين !

وحان الوقت الذي ينفرط فيه عقد الفرقة ، فألفى « نجيب » نفسه يتبوأ عرشه العتيد في « قهوة الفن » يسرّح بصره في الفضاء العريض ، وينفُذ بأنظاره بين أبراج الفلك ، متصفحاً ذكريات لياليه في فرقة « عزيز » وما تهيأ له فيها من تجلية وانتصار .

وعلى الرغم من أنه كان يقضي أيام تعطل وفراغ ، فقد كان مؤمناً بما بشّره به « عزيز » حين أراده على تغيير اسمه ، إذ قال له :

استقبل منذ اليوم بواكير سعادته . . .

كانت « مصر » لهذا العهد ، تخوض محنتها الكبرى فى الحرب العالمية الأولى ، تعانى أزمات نفسية صعابا من الحماية الإنجليزية وما إليها من ضائقة وضغط وحكم عُرْفِىّ وامتهان للكرامة الوطنية وحقوق البلاد . .

وكان المسرح المصرى فى أغلب الأمر بمعْزِل عن الاستجابة لما يموج فى الأمة من تأثر وانفعال ، وإلى جانب ذلك لم يكن للمسرح من طابع إلا طابع الجِــد" والتزمت والوقار . . . وجلّ مايعرض من الروايات أجنبى الروح من نتاج الترجمة ، ليس فيه مايتصل بأهواء الناس ، أو يسرّى عنهم فى محنتهم النكراء .

فصدف الناس عن المسرح الجِدّى" ، وتركوه قاعا صَفْصَفاً يعانى الركود والكساد !

وهنا رأينا « الريحانى » يشقّ ميداناً جديداً دفعته إليه يد القَدَر ، أو قُلْ بصيرته النيّرة التى فطنت إلى مايحتاج فى نفسية الجمهور من مطالب ومَنازع ، فظهر فى منظر مصرىّ على أحد مسارح الاستعراض . . . وكان ذلك المنظر ساذَجا فكِهًا قِوامُه بعض الشخصيات المصرية الصميمة ، يحتشد فيه خليط من أغان شرقية وغير شرقية . . . وابتكر « الريحانى » لنفسه تلك

الشخصية الطريفة، شخصية «كشكش بك» العمدة السادر الطروب!

فما لبث هذا المنظر أن أخذ بألباب النظارة، وانتزع منهم صيحات الإعجاب، وكان فى ذلك ما أغرى «الريحانى» وصاحب مسرح الاستعراض بالتوسع فى المنظر، والتفنن فيه، وتعهده بألوان التجديد المرح، وتغذيته بالأغانى الشعبية، والمشاهد الراقصة، حتى طغى المنظر على المسرح كله، فأصبح رواية مستقلة تنفرد بالمسرح بطلها «كشكش بك» وقوامها الفكاهة والغناء والرقص.

وأحسسنا أن نواة الملهاة المصرية الصميمة قد أخذت تتخلق.

راع الجمهور أول ما راعه أن يشهد مواقف شعبية خالصة، وشخصيات محلية واضحة، منتزعة من صميم البيئة المصرية بلهجتها وعاداتها وما لها من طابع مخصوص فى معالجة الحياة ومعاناة العيش.

واستطاع «الريحانى» ببراعته الخلابة أن يجعل من «كشكش بك» شخصاً حياً يفرض وجوده فى محيط الناس، فيألفونه ويستجيبون له، ويتابعون حياته وما فيها من مغامرات طريفة تهدى إلى النفوس ضروبا من المتعة والسلوى!

ولعل استجابة الجمهور «لكشكشيات الريحانى» ترجع إلى أن الناس كانوا وهم يشهدون «كشكش بك» يحسون أنهم يحيون حياته المرحة الطروب، ويتنفسون فى جوه الطليق، فيجدون فى ذلك

بعض التسرية والخلاص مما يجثم على صدورهم من أثقال الضوائق والأزمات والاضطهادات .

وكان نجاح « الريحانى » حافزاً لغيره من رجال التمثيل على أن يقتفوا أثره ويحاكوه فى ذلك اللون الطلى ، ولكنهم لم يوفقوا توفيقه ، ولم يستطيعوا متابعة السير كما استطاع . وإن كانت تلك المحاولات قد نبهت الأذهان إلى « الملهاة » المصرية والعمل على إقامة صرحها فى ميدان التمثيل . . .

وعرف « الريحانى » أن « كشكش بك » لا يمكن أن يكون خالداً ، فما ظفر بالخلود كائن حى ، فإن لم يتطور أو يتجدد حلت به الشيخوخة وأدركه البلى . . . ومن ثم رأينا « الريحانى » يساير الزمن رويداً فى مرونة وطواعية وتبصر ، وإذا هو يتخفف من مشاهد الاستعراض الغنائية الراقصة ، مقتحماً ميدان الملهاة بعناصرها المتماسكة .

وها هو ذا اليوم تنتهى إليه بحق إمارة الملهاة فى الشرق العربى غير منازع !

ليس من دقة القول أن ندعى أن « الريحانى » بلغ الغاية التى إليها يتشوف طلاب الفن الرفيع فى هذا اللون من المسرحيات المصرية الصميمة ، ولكنه يمضى فى الطريق موفور الجهد ، موفق

الخَطو ... يقدّم إلى جمهوره المولع بفنه لونامن الملهاة المصرية حافلا بالتسلية والإيناس ، نابضا بالحياة فى الأحداث والأشخاص ، عامراً بالنقدات اللاذعة للمجتمع والناس .

ولا ننسى أن موضوعات رواياته التى يكتبها هو وشريكه الأستاذ « بديع خيرى » مقتبسة من أصول أجنبية ، غير أن طريقة « الريحانى » فى الاقتباس والإخراج خليقة بالحمد والإطراء .

فهو ينتزع الموضوع الأجنبى ، ويلقى به فى بُوتقة فنّه الخاص ، ثم يصهره ، ويصبه فى قالب جديد ، صميم فى مصريته ، صادق فى تعبيره . . .

فالاقتباس عنده نحو من الاستلهام والاستيحاء ، وقليلا ما تحس بأن ثمة اتصالا بين موضوع رواية « الريحانى » والموضوع الأصيل الذى كان مورداً للاقتباس .

ولا ريب أن تمصيره أقرب إلى التأليف منه إلى المحاكاة والتقليد .

استهل « الريحانى » عمله الفنى مصريا شعبيا غاليا فى شعبيته ، وأفضى به الأمر فى الموضوع والإخراج والتمثيل إلى مرتبة يأنس بها الخاصة ، ولا يرونها بمنأى عن مستواهم الفكرى . . .

أما تأديته لأدواره بوصفه ممثلا ، فتلك هى بيت القصيد من فن « الريحانى » الظريف !

إنه إنسانى فى أدائه المواقف ، ومجابهته الملابسات ، فتحس بأنه قطعة حية منتزعة من الواقع المشهود .

يسايرك بعد خروجك من المسرح ، كما عاش معك أثناء وجودك فيه ، فليس هو تمثالا خزفيًّا يتحرك على المسرح ، بالزولَب مُمْدار ، لا يلبث أن يسقط حُطاماً حين ينزل الستار !

وربما كان توفيق « الريحانى » فى تأديته لأدواره يرجع إلى الملاءمة العجيبة بين شخصيته الواقعية وتلك الشخصيات التى يمثلها على منصة المسرح ، ولا يعيا « الريحانى » بأن يوفر لفنه تلك الملاءمة ، فهو يصوغ مسرحيته بنفسه ، ويشاطر فى تأليفها وحبكها وتصريف مواقفها وتدبيج حوارها طوْعَ نزعته ، ووَفْقَ هواه .

وفى حسبانى أن نجاح الممثل فى أداء أدواره يرتكن فى الغالب من الأمر إلى أحد عاملين :

الأول : الملاءمة بين الشخصية الطبيعية له والشخصية الوهمية التى يؤديها .

والعامل الآخر أن يكون الممثل فى واقع الحياة عاجزاً عن تحقيق شخصية معيّنة ، توّاقا إلى أن يكونها ، فإذا ما راح يمثلها وَهْماً على المسرح ، برع فى تمثيلها ، تنفيساً عن حرمانه ، وإرواءً لغليله ، فكأنه يحقق فى عالم الخيال ما تصبو إليه نفسه فى عالم الواقع المحسوس .

وقد ارتكن « الريحانى » فى توفيقه إلى العامل الأول ، وهو عامل الملاءمة . . .

ليس ثمَّة كبير فرق بين « الريحانى » الأريحىّ الوهّاب المِتْلاف ، ذى النزعة المَرِحة الضاحكة ، وبين « كشكش بك » فيما تجلّى لنا على المسرح من مغامراته اللاهية .

« للريحانى » فى الحياة فلسفة تستند إلى دعامتين :

الأولى :

أنْفِقْ ما فى الجيب ، يأتِكَ ما فى الغيب .

والأخرى :

تَغَدَّ الدنيا قبل أن تتعشّاك .

أطال الله غَدَاءه !

إلى "موباسان"

صديق الكبير :

هذه رسالة يخطُّها إليك امرؤ مُقِرٌّ لكَ بالجميل ، معترف بحسن الصنيع ، حامدٌ لكَ طِيبَ الصحبة منذ ثلاثين عاما أو تزيد.

كنتَ أول من طالعنى فى فتوة السنّ ، وعنفوان الصبا . حين انطلقتُ أقرأ ما يقع لى من أدب الغرب ، فأنا اليومَ أُفْصِحُ لك فى هذه الأوراق عن سر علاقتى بك ، وأبسُطُ ما تكشَّف لِى من بديع فنك .

ما أَنْسَ لا أَنْسَ باكورة لقائى إياك فى مكتبةٍ هنالك «بالإسكندرية» فى يوم من فصل الصيف .

كان من عادتى أن أقضى الضَّحَوات فى مَشْرَب ساذَج ينظر إلى البحر ، أنعَم بجلسات رَخِيَّةٍ هنيَّة فى رُفْقَةِ طائفةٍ من الصحف ، وأنا أستمع فى الحِين بعد الحين إلى ثرثرتها فى

مُشكَولٍ من أنباء الحرب العُظمى وأطراف من شئون الناس .

وساعةَ ضقتُ ذَرْعاً بثرثرة رُفقتى من الصحف ، وهفت نفسى إلى أن أنجوَ بها من جعجعة الطعان وفضول الأخبار إلى أفق أصفى وأنقى وأرحب ، إلى أفق الأدب الرفيع .

وكان لا بدّ لى أن أتخيّر رائدا يخطّ لى الطريق ، ويضىء لى جوانبه ، رائداً يُحسِنُ التودُّدَ إلى نفسى بحديثه ، فأحسن الإصغاء إليه ، ولا أملّ الوعْىَ لما يقول .

وبغتةً نهضتُ من المَشرب أطلب إحدى المكتبات ، وسَرْعانَ ما وجدتُنى بين تلال تلك المدينة العجيبة التى تتألف طِباقُها من أذهان وعقول ... إنها المدينة تزْخَرُ بِحُشُودٍ من المواهب والكفايات والجهود ، وإن أهلها ليبادلونك التَّنَاجى بحديث صامت خَفَّاق ، ينفُذُ من الشَّغَاف حتى يبلغَ أعماق السرائر .

شبيهةٌ تلك المدينةُ بمحرابٍ قُدُسِىٍّ تنتقش فى جوانبه صور حية من قرائح البشر ، ومشاهد خالدة من تاريخ الفكر عند الإنسان .

وبينما أنا مأخوذ أقلّب النظر فى ذلك المحراب ، وأتصفح

ما حواه من صور ومشاهد ، أحسستُ بك أيها الصديق الكريم تتدانَّى منى ، فتضع يدَك ملاطفا على كتفى ، كأنكَ قد فطنْتَ إلى حيرتى ، فأسرعتَ تأخذ بيدى ، لتهديَنِي الطريق .

رأيتك تدنو قوىَّ البنية ، صُلبَ الخطا ، وعيناك يَشعُّ منهما ضياء ثاقب لا تمتنع عليه الحُجُب .

رأيتك تتخايل على فمك بَسْمَة ياَلها من بسمة ، هى بسمة الشمس يَنْضُدُ رفيفها من بين الغمائم ، غمائم التشاؤم والأسى والاستيحاش

وما إن تطارحْنَا التحايا ، حتى تَوَافَقَ رُوحانا ، فمضينا فى الطريق جنبا إلى جنب ، وإذا نحن نقصد المَشْرَبَ المعهود ، ولا يكاد يستقرُّ بنا المجلس حتى تبدأ حديثك ، فأوليك سَمْعا مشُوقا

إنك لتتحدَّث حديثا عجبا ، يَقْطُر عذوبة وصفاء ، وإنك لتتخذ أسلوبا لا يَرُوع بما فيه من تنميق العبارة وإحكام الصَّوْغ ، وإنما يَروعُ بما يَسرِى فيه من حيوية وحميَّةٍ كأنهما تيَّار كهْرَبِىٌّ !

وطفِقتَ ترسل القول دَفَّاقاً كغوارب الموج ، فسكتُّ

أرميك بالثرثرة . ولكن لله أنت من ثرثار غير مسئوم ، تبسط العواطف مختلفة ألوانها ، وترسم الصور أنواعا وأفانين ، وتجلو الشخوص طبقات شتى وأوضاعا متباينة ، ولا تألو جهدا فى البسط والرسم والتجلية ، على حين تطلق الضحكات رنانة سادرة ، فإذا أنا أرى سوق الحياة ومعترك العيش سطورا وكلمات كلها صدق وإخلاص !

وتوالت جلساتنا الصافية فى ذلك المشرب ، تطول يوما بعد يوم ، فتوثقت بيننا الصلة ، واستحكم التعارف ، وأصبح لتلك الضيفة التى جمعتنى بك ذكرى كريمة ما برحت تلمع فى خاطرى على الرغم من كر السنين .

وأذكر أنى ملت عليك مرة أسألك :

« أى الأشياء أكثر شغلا لك فى الحياة ؟ »

فأجبتنى جهير الصوت :

« ليس يشغلنى ويملك على أقطار نفسى إلا شىء واحد ، هو حب الحياة ! » .

وأمسكت بكفى تضغطها ، وأنت تطوف ببصرك حوالينا ، وانبريت متحمساً تقول :

« انظر إلى الحياة ما أجملها . . .
إنه لحبيب إلىّ كل شىء فيها جل أو تحقر . . .
من إنسانها العملاق إلى النبتة التى لا يكاد ينشق عنها أديم الأرض . . . »

ثم استويت فى مجلسك ، ملقياً بنظرك فى الأفق ، وضاح الجبين ، تقول :

« أحب السماء كحب الطائر لها !
أحب الغابة كحب الذئب الذى يرتع فيها !
أحب الصخرة كحب الوعل الذى يتخذها له ملعبا ! »

ولقد بعثنى حب الحياة على أن أكتنه خوافيها ، وأستبر أغوارها ، وأقتحم معاقلها الصعاب .

ومعنى الحب عندى هو الرغبة العارمة فى الامتزاج والفناء فيما هو محبوب ، ومن ثم استرسلت أمتزج بتلك الأمواج الزاخرة التى تضطرب فى محيط الحياة ، أعلو على متونها تارة ، وتهبط بى إلى الأعماق أخرى ، لا أضيق بشىء مما يكون ، ولا أنشد الاستقرار على حال مما يجرى ، فقد فنيت فى هذه الحركة الدءوب كل الفناء !

غَفَرَ الله لهذه الحياة !

شدَّ ما تشبثتُ بها ، فنبذَتْني بعيدا

بدأتُ أيامى تلميذَ مدرسة يستجيب لنزعات نفسه الطليقة ، ولا يملك عنها تحيدا ، فضاقتْ المدرسة بقصورى فى طريقها المرسوم . . . وما هى إلا أن ألفيتُنِى طريدَ التعليم !

وكنتُ فى الريف ، أرتع فيه وأمرح أحيا مع الزُّرَّاع ، أُداخلهم فى منازعهم ، وأطالع رسومهم فى معايشهم ، وأجد فى ذلك أُنساً وسلوى . ولكن الريف ضاق بى ، إذ كنتَ آخُذُ منه لا أُعطيه ، فما هى إلا أن ألفيتُنِى طريدَ الريف !

فقضيتُ حقبَةً من حياتى موظَّفاً أحْسَبُ فى النكِرات ، موظَّفاً غير ناشطِ العمل ، ولا مجتهدٍ فيه . . ولكننى على الرغم من خمولى وكسلى فيما يُلْقَى إلىَّ من مقتَضيات الخِدْمة ، كنتُ لا أملُّ الاختلاط بالرفاق من الموظفين ، أتدسَّسُ إلى دخائلهم ، وأتعرف خصائصهم ، وأجد غاية الائتناس فى استجلاء ما يدور بينهم من أسباب الحياة . ولكن الوظيفةَ تأبَتْ أن تحتمل منى النقيضَيْن من إهمال وفضول ، فإذا أنا طريدُ الاستخدام !

وما إن تركتُ الوظيفة حتى وجدتُنِى أقتحم معاقل «البرجوازيين»

فعشقتُ حياتهم ، وتذوقتُ مُتعتهم ، وقارفت معهم أخلاط اللذائذ والآثام . . . وكلما أوغلتْ بى الأعوام فى ذلك المعترك ازددتُ اغترافا مما أرى وما أسمع وما أحس ، وكان ذلك يُلهبُ فىَّ الشغف بالحياة ، والرغبة فى المزيد .

أحببتُ فى الحياة مُتَعها أشكالا وألوانا ، فأغرقتُ نفسى فى لجة الحس : هصرتُ القدود جُهْدَ ما أُطيق ، واعتصرتُ الكئوس اعتصارَ ظامىء لا يَرْوىَ له غليل ، وفزعت إلى المغيَّبات أستكملُ بها وسائلَ التحليق فى آفاق الخيال .

بَيْدَ أنى كنت آنَسُ من الحياة إباءً علىّ ، وتملُّصاً من بين يدىّ . ولم تكذبْني الأيامُ ظنّى ، فإنى لم أكد أتجاوز الأربعين حتى انفصم ما بينى وبين دنياكم من أسباب ، ولم يبقَ إلا أن أتخذ لى سكنا فى تلك المدينة العجيبة ، مدينة الأوراق !

يالها من غرائب ومفارقات ! حبى للحياة هو الذى حرمنى دوام وِصالها ، وولعى بمُتَعِها وأطايبها هو الذى حال بينى وبينها !. كلما هِمْتُ بها صدّت ، وكلما ملت إليها بَعُدَتْ . . فلا بدْعَ أن أحقِدَ عليها حقدا مريرا ، حقدا يخالط ذلك الحبَّ المكين كما يخالط السمّ المُنْقَعُ رطبَ الشراب !

وكنتُ أرى مجتمع الناس تحكمه عادات ومعتقدات عليها غلائل فاخرة من نسيج المخادعة والرياء ، وكأن ذلك المجتمع سجن مثقل بالسلاسل والأغلال . فتطلعتُ إلى حياة حرية وطلاقة ، وجريتُ في العنان جموحاً أحطم القيود ، لا يصدني عائق عن الهدف المرموق .. فنضوتُ الأستار عن تلك الغرائز البشرية التي تعمل في السرائر ، وتجعل من الخلق ألاعيب تبعث السخرية والاشمئزاز .

وريع المجتمع مما جابهته به من مساويه ونزواته ، فصاح بي : مكانك أيها السليط !

إلا أن ذلك المجتمع كان في حقيقة أمره يُصغي إليّ ، ويقبل عليّ ، وكأنه يستزيدني مما كنتُ ألقي عليه الضوء من خفايا الناس !

ولكن الحياة الغدور أبتْ عليّ مهلةً من العمر ، أستوفي فيها مُرادَ نفسي من الكشف والإفصاح ، وإذا بمتع الحياة تسري في دمي سُمّاً زُعافاً يهدّني ويُشيع فيّ الاضطراب . حتى حل يوم كنتُ أشعر فيه أن عقلي يُنزَف ، وأنه مُوشِكٌ أن يَنضُبَ ...

وأظلّني ذلك العهدُ المشؤوم ، عهد الجنون ، ثلاث سنين .. قضيتُها في رَقْدٍ عاصفة هوجاء من رمال سُود ، فيها أضواء مروّعة ، وأصداء مُدَوِّية . . . عاصفة يأخذ حرُّها بخناقي ، ويسجُن أنفاسي ، على حين تنتظمني قُشَعْرِيرة ثائرة ، كأن جسدي على وِسادٍ من زمهرير !

وما تكاد تعاودني سكينةُ نفسي لحظات ، حتى يتقسّمني رعب وقلق . إنها لحظات صَحْوٍ ليست أهون عذابا من هبوب تلك العاصفة الهوجاء . في لحظات صحوي كنتُ أتطلع إلى مَهْرَب من الآلام التي تَشْحَذُ لي سِنانها ، ولكن أنّى لي ذلك والإعصارُ الأسْوَدُ لي بِمَرْصَد ، وإنه ليُعِدُّ عُدَّته لاستئناف الهجوم ! ؟

تلك حياتي التي عشتُها ، قصصتُ عليك نبأها ، دون أن أتزيّد أو أغلو . . . »

ولما بلغتَ أيها الصديقُ من حديثك هذا المَبْلَغ ، رأيتُك قد انكفأتَ تبكي أحرّ بكاء ، فكان منظراً عجباً يا له من منظر !

أنت الجبار العنيد الذى طالما أضحكتَ وأبكيتَ ، وأعززتَ وأذللتَ ، تبدو متصاغرا أمام صولة الزمن ، كأنك طفل لا تملك إلا تَسكُّبَ الدموع !

ولمحتُ أوصالك تهتزّ ، فأقبلتُ عليك ألاطفك وأواسيك ، فإذا بك تستحيلُ بين يدىّ رَمادا ، وإذا بهذا الرماد هَبَاء فى الهواء . . .

ووقفتُ أرقُب ذَرّاتِ الرماد ، تحملها ريحُ البحر إلى الشاطىء المجهول !

إلى "بلزاك"

أيها الزميل الكريم :

ومن أحقُّ منكَ بأن يتقبل ندائى إياه ، وأن تستجيب نفسه الرغبة كاتب على ضفافِ النيل ، يحاول أن يتطاول بصوته ليبلغ أفقك الرفيع ؟

من أحقُّ منك أيها الإنسانيّ الخالد ، الكبير قلبُه ، النبيل شعورُه ، الموفور عطفه على البشرية جمعاء ؟

من أحق منك بأن يأخذ بأيدى الكتّاب فى أشتات الممالك والأمصار ، مهما تبعُد بهم الشُّقّة عن مَدَاك ، وتقعد بهم الهمة عن غايتك ؟

من أحق منك بأن يدنى إليهم أسباب مودته ، ووشائج عاطفته ، فيتسامى بهم إلى ذِرْوَتِكَ السامقة ، يحوطهم بالبر الأبوىّ ، وَيدَعُ لهم أن يلتمسوا من اسمه نَفْحة المجد والجاه ؟

إنى لأدعوك بالزميل ، وما بعثنى على هـذا الدعاء إلا ذلك الرباط المقدس الذى يصل بين كاتب وكاتب ، وإن تفاوتت بينهما الأقدار .

وما كان أخلقنى بأن أدعوكَ الأخ الأكبر ، أو المواطنَ الأعز !

إنك ياصديقى لم تعد فرنسيًّا محدودا بهذه الجنسية وحدها ، فأنت « مُوَاطِنٌ عالمىّ » بحقّ .

لقد ابتغيتَ العالم كله لك وطنا ، ولقد اتخذت من البشر أجمعين مُوَاطِنِين ، وهذه نماذِجُك التى سوَّيتها فى دنيا كتبك ليست إلا صورة مصغّرة لدنيانا التى نعيش فيها على اختلاف بقاع الأرض ، وتبايُنِ ألوان الناس .

ما قرأ لك امرؤ إلا استجابتْ نفسه لما كتبتَ ، وأحس أعمق إحساس بأنك لستَ عنه غريبا . فهو يرى فيك طيفَه ، كما يرى فيك أطياف مُوَاطِنيه ، حيثما كان .

ما قرأ لك امرؤ إلا نبتت بينه وبينك أُلْفَة تصل نفسَه بنفسِك ، وكأنه قد لقى بك مترجما أفصح منه لسانا ، يجلو له مشاعره أوفى جلاء ...

أنت إنسان تتنازعك الأوطان والمواطنون .

كل قارىء لك يدّعيك لعشيرته وأرضه ، غير عاجز عن تأييد دعواه بالحجة والبرهان .

وهأنذا شرقيّ لا أجدك إلا شرقيّا حقا . . . لكأنك على ضفاف النيل دَرَجْت ، وبمائه ارتويت ، ومن ثمره اغتذيتَ .

لكأنك استنشيتَ نسيم الشرق الشذي ، ونَعِمْتَ بدفء شمسه الوهاجة ، وحلّقْتَ سابحا في أخيلته الرحاب .

لستَ بشرقي محصور في عصر بعينه ، ولا في جانب مخصوص من جوانبه ، ولكنك رُوحٌ شرقية هائمة تجتاب الحِقَب ، وتنتظم الجوانب والأرجاء . .

إني لأتمثلك « شهريار » آخر لعهد جديد من « ألف ليلة وليلة » . . . أتمثلك ذلك السلطانَ الشرقيَّ الذي أهداه إلينا عالَمُ الأساطير ، وما برحَ حتى اليوم يحيا بيننا على عرش الأحلام . .

ظل هذا السلطانُ يعيش للحبّ والمجد والطموح ، ويتقلب في أعطاف الترف والبَذْخ والنعيم . . بَيْدَ أنك أنت « شهريار » من طراز أعلى وأنبل ، سلطان أقوى تَفَطُّناً لشئون رعيته ، وأحنى عليهم قلبا .

كان « شهريار » الأول يقضي كلَّ ليلة على نفس إنسانية بريئة ، بعد أن يعتصر حياتها . فأما أنت فكنتَ في كل ليلة تهبُ الحياةَ للناس ضروبا وألوانا !

ولم تكن هباتُك من فواضل ماتملك ، وإنما هي هبات تقتطعها من جوهر نفسك ، فكنت تعطي الحياة لهؤلاء الناس من حياتك ، وتُجْري الدم في شرايينهم من عروقك ، وتبثهم من رُوحك قَبَسةَ الرُّوح .

وبينما كان هؤلاء الناس يزدادون نُمُوًّا وازدهارا في الحياة ، كنتَ أنتَ كالزهرة حين تَذْوِي على مَهَل .

شتَّانَ ما بينك وبين « شهريار » السالف ، فشعاره كان الأثَرَةَ والتدمير ، وشعارك هو البناء والفِداء .

ثَمَّةَ فارق بينك وبينه ، فإن متعته كانت في إصغائه لما تقصُّه عليه « شهرزاد » ، وما أرْوَعَ ما كانت تقصُّه عليه من أحداث خلاَّبة يتفكه بها ويتسلىَّ . أما أنتَ فلا شأن لك بالإصغاء ، وإنما دَيْدَنُكَ التحدث ، والبشريةُ كلُّها « شهرزاد » مصغيةٌ إليك ، مسحورة بما تسمع منك .

أمام عينيَّ طيفُك ، وأنت في ردائك الأبيض الفضفاض ،

مُنْتَطِقٌ بتلك السلسلة الذهبية ، تجول قدماك فى خُفٍّ مُقَصَّب ، وقد تَبَوَّأْتَ مقعدك الفسيح ، بادنَ الجسم ، ضخم الهامة ، يترسَّلُ شعرك الفينان ، وعلى وجهك المُطَهَّم تلوح الوداعة والسماحة والبِشْر . ومن لوامع نظراتك تنفُثُ سحرا يبهر الأعين ويأخُذُ بمجامع القلوب . وعلى مقربة من مجلسك تنبسط مائدة حافلة بالرحيق الفاخر والفاكهة الطيبة ، وأنتَ فى الفَيْنة بعد الفينة تتناول من هذا ومن تلك ما لذَّ وراق . متخذا كالَ متعتك من أنفاس تبغ « اللاذقية » ينشر سحائبه حاملةً إليك أحلام الشرق وأخيلته ، على حين تترشَّف من شاى « الصين » الذكىّ ، مُضَمَّخاً بعِطْرِ أباطرتها العِظام !

وإنك إذ يستقر بك المجلس على هذه الحال ، لتتفتَّقُ عبقريتك ، فينساب حديثك فياضا يستمع إليه الدهر ، وما يطيب لك أن تتحدثَ إلا إنْ تَغَشَّاكَ جوف الليل ، وشمِلَتْكَ هَدْأته ، فتظل آنساً بسهرك وسمرك ، حتى تنشقَّ الغُبْشَةُ عن بَسْمَة السَّحَر !

حَسْبُكَ كلمة ترسلها ، أو إشارة تبديها ، فما هى إلا طَرْفة عين وانتباهتُها حتى تقوم المدائن بين يديك عامرة ، والناس شتى

من عِلْيَةٍ وصعاليك يتدافعون فى جنباتها مختلفة بهم الأحوال والنزعات والأقدار .

لله أنت من ساحر ، تستعين على سحرك بألمعية خاطرك ، وحيوية ذهنك .. فإما كلّت بك القريحة ، وأدركك الإعياء ، فزعت إلى أقداح القهوة الشرقية تعبُّ منها عبًّا ، ولا تمل منها شربا ، لتوقد بها ما خمد من نشاطك وحميتك ، فلا تلبث أن تنهض منها بنشوة وانتعاش .

عشت أيها الزميل الكريم عَيْشَ « شهريار » فى أطوار حياتك جميعا ، يهيم بك الخيال فى كل واد ، ويستبد بك دائما عالم الأحلام .

ألم تكن فى سِنّ الغرارة تسمو بنفسك إلى صفوف الأساتذة ، وتَثِبُ إلى الشأو الأقصى فى ميادين الفكر ، فتكتب فى دقائق الفلسفة ، وتحاول أن تعالج « مشكلة الإرادة » ، على حين كان أترابك وقرناؤك يتعثرون فى إحسان قواعد الإملاء ؟

ألم تكن قادرا فى إبّانِ فاقتك على أن تُحيلَ طعامك الغثّ طعاما طيبا لا غثاثة فيه ، وذلك بما كنت ترسُمُه على المائدة من صِحاف حافلات بمختلف الألوان ، فتكتسب المتعة والتلذذ على

الرغم مما أنت فيه من حرمان ؟

ألم تسكن فى مطلع شبابك ، وأنت تأوى إلى غرفتك الصغرى فى الطبقة العليا من بيت متواضع ، تقاسى زمهرير الليالى الطوال ، وتعانى ظلمة الوحشة الكئيبة ، فما هى إلا أن يجوز بك الخيال إلى عالمك الآهل المأنوس ، تَنْعَم فيه بالدفء والطمأنينة والأمان ؟ . . .

ألم يُتَحْ لك وقد بدأتْ الدنيا تُقْبِل عليك ، أن تملك دارا فيحاء أعددتَها لسكناك فى « بيفر » فأبيتَ إلا أن تجعلها قصرا من قصور « ألف ليلة وليلة » حالية بالرياش الفاخرة ، أرضها من المرمر اللؤلؤى ، وجُدرانها مُؤَزَّرة بالخشب الثمين ، وقد تناثرتْ فيها ألواح الفن والجمال . وما كان فى مقدورك أن تجعل ذلك كله حقيقة واقعة ، ومن أين لك المال الطائل يفى بغرضك ؟ فأسعفَتْكَ مُخَيِّلتك الرَّحبة تحقق لك ما تريد ، فجعلتَ تَخُطّ فى كل موضع من قصرك ما تصبو إليه نفسك من أثاث ورياش ، تخطه أسماء بلا مُسَمَّيَات ، فإذا أنت سعيد بوهمك ، موفور التنعم بخيالك ، والدار أمام عينيك خاوية جرداء !

ألم تتوهم يوما أنك اهتديتَ إلى « الخاتم السِّحْرى » هبة

الشرق الحالم ، ذلك الذى يمنح صاحبه كل ما يهفو إليه فؤاده وإن عزّ مطلبه ، فأردت أن تكشف بمخبايا الكنوز فى بطن الأرض ، وعشتَ بهذه المُنى زمنا رَغْدا ؟

ألم يُطَوِّحْ بك خيالك إلى « جِلْدِ الأحزان » المُرَقَّشِ بكلمات عربية ، ذلك الذى تمثلته جلدا سحريا عجيبا ، يكفل لصاحبه إنجاز مآربه ، بيد أنه كلما حقق مأربا تكمش وتقلص ، ونقص بقدر ذلك عُمُرُ من يملكه ، حتى يحين وقت لا يبقى فيه من « جِلْدِ الأحزان » ومن عمر صاحبه إلا بقية صغيرة ، تأتى عليها الرغبة الأخيرة ؟

ألم تكن طَوَالَ عمرك موصولَ الهوى بتلك الحياة الناعمة ، حياة الترف والسَّرَف ، تستدرّ اللذة والاستمتاع . وبين جنبيك تكمن روح ذلك السلطان الشرقى العتيد «شهريار» فانطلقتَ تطلب المال دءوبا تلتمس إليه كل سبيل ، وكلما ازددتَ كسبا أمعنتَ فى الإنفاق إمعانا ؟

لقد أصبتَ من المال ما هو كثير ، ونعمْتَ من المتع بما هو غال نفيس ، ولكن المال لا يكاد يتجمع فى راحتك حتى ينزلقَ عنها انزلاق الزئبق ، فلا تجد بُدًّا من الإسراع إلى الدائنين ،

ليعينوك على أمرك بألوان القروض .

شدّ ما هويتَ المال !

وشدّ ما أزريتَ به !

هويتَه لأنه وسيلتك إلى حياة الرفاهة والنعيم ، وأزريتَ به لأنك أسرفتَ فى بذله غيرَ ضنين به ، ولا حريص عليه ، فعشتَ ما عشتَ لا تجعل للمال سلطانا عليك ، ولكنك تتخذ المال عبدا تصرفه كيف تشاء .

أيها الزميل الكريم :

ما أروعها حياة قضيتَها أنتَ فى دنيانا تلك ، على الرغم من ضآلة سِنيها الخمسين !

وهل تقاس حياة العباقرة بما قضَوْا من أعمار ؟

رُبَّ ساعة خاطفة يشق فيها العبقريّ من آفاق الفكر ما تتقاصر عنه الآجال على تَرادُفِ الأحقاب !

كانت حياتُك أعمارا فوقَ أعمار ، فى كل لمحة تبعثها فى جوانب الكون ، وفى كل خطوة تمشيها على أديم الأرض ، تتفتح لك كنوز من أعماق الحياة ، زاخرة بأسرار النفوس وتجارب الناس ، وإنها لكنوز تتخطاها الأعين ، وهى فى غفلة عنها ، لا تُقيم لها وزنا .

حقا لم يكن عمرك فى حساب الزمن طويلا ، ولكن هذه الروائع المائة التى سطَّرتْها يراعتُك كانت سجلاً وافيا للبشرية يُدَوِّن أحداثها ويؤرخ أطوارها فى عهود ممدودة يقطع الزمن فى حسابها طِوَالا من الأعمار .

ولكن ثمة كتاب لم يَجْرِ بتسطيره قلمك ، ذلك هو قصة حياتك ، وإنه لقصتك الكبرى على وَفْرَةِ ما أخرجتَ من قصص ، وكيف لا تكون القصة الكبرى وأنت بطلها الفذّ ؟

إنك لتجمع فى شخصيتك الواحـــدة مئات الأبطال الذين احتوتهم « ملْهَاتُكَ » الإنسانية الخالدة .

فى شخصيتك الواحدة تزاحمتْ حياة أولئك الأبطال ، بما اعتلج فيها من نزعات ونزوات ، وبما توارد عليها من أفكار وأحداث ، فلقد انفسحت شخصيتك لذلك كله على ما فيه من تناقض واختلاف .

كنتَ أنت كل هؤلاء ، أفردتَهم من دَخيلةِ نفسك ، ونفختَ فى كل منهم نَسْمَةَ الحياة ، ودفعتَ بهم فى مسالك الأرض ، يستمدون منك العزم والفهم ، وتجرى أقدارهم بتدبير منك وتقدير . إنهم بَضْعَةٌ منك . وإنّ مَرَدَّهم إليك ، يتفانَوْنَ فيك فناء

الصوفىّ فى معبوده ، فما نورهم إلا قبسة من نورك الشامل العظيم!

ولقد كان عجبا ما رأيناه منك أيها المعلّم غيره . . .

لقد علّمت أبطالك حقائق الحياة ، وبصّرتهم بالتقلب فى مذاهب العيش ، ووقفت بهم على كل شىء مما يلابسهم من حبّ أو كره ، ومن إقدام أو إحجام ، ومن هزيمة أو نصر . فلما نزلت أنت فى ملتطم الدنيا ، تخالط الناس ، وتمارس ما يمارسه أولئك الأبطال ، لم يكن لك من حظ سوى الإخفاق .

خلقت لنا أبطال المال ، موفورة خبرتهم به ، وحنكتهم فى تصريفه ، ولكنك لما أردت أن تعالج هذه الشئون ، خرجت بصفقة المغبون !

ويا طالما جلوت لنا أبطال حبّ وهيام ، مفصحاً عن سرائر المرأة ، متغلغلا فى طواياها ، وإذ صبت نفسك إلى مطارحة الغرام ، وقفت عاجزا أمام تلك القلوب التى شغفتك حبّا .

تُرَى ما علة هذا التناقض بين الحالين فى شخصيتك العجيبة ؟

أنت فى عالمك الذى سوّيته بقلمك لم تكن إلا إلها ، فكيف يمارس الإله أوضاع البشر ؟

للإله سماواته وعروشه ، فأما الخلق فلهم دنياهم يتقلبون فى جنباتها كما يشاءون ، ويعانون من أوضاعها ما يعانون . . .

كيف ينقلب الإله تاجراً من البَشَر ، يرضى لنفسه المماكسة والممارسة ، ويخوض مع الناس مزالق الأخذ والعطاء ؟

وهل يليق بالإله أن يقارب ذلك الحبّ الأرضيّ ، فتتعلق بأذياله تلك الصغائر من غَيرة أو مذلة أو إغراء ، على حين أنه هو ذلك الإله العظيم الذى يَعْمُرُ قلبَه الحبُّ الرفيع المُصَفّى للخلائق أجمعين ؟

عشتَ دائماً فى عليائك ، تَسْبَح فى فيض زاخر من النور ، يُعْشِى بوهجه الأبصار ، ولكنه يزيدك تألقاً ونفاذ بصر .

على أنك لم تكن تنسى هذه الأرض ، فجعلتَ ترسل إليها من عَلٍ نظراتِ عطف وإشفاق ، ترعى بها من تسويتهم من شخصياتك . وتستشفُّ بها تلك النفوس التى جُبِلَتْ من ماء وطين !!

لقد لبثت عمرك إلهاً فى ملكوتك الأسمى ، تحسن خَلْق شخصياتك ، وترسل بها تسعى على وجه الأرض ، فإذا هى تدور من حولك كما تدور الكواكب من حول الشمس . . .

أيها الزميل الكريم :

ما أجدرنا نحن الذين نعالج فنّ القصة فى الشرق بأن نتخذك إماماً .

بيننا وبينك أُلفة حبيبة ، وتجاوبٌ مأنوس .

ما إن نطالع لك شيئاً إلا ترَدَّدَ صداه فى وَليجة نفوسنا ،

وكان لإحساسنا مثاراً . . .

ولعلك أنتَ أقربُ كتاب الغرب إلى ما هو أصيل فى قلوبنا من ميول ومنازع.

ما أشبهَ عصرك الذى شهدتَه بعصرنا الذى نعيش فيه هنا فى بلاد الشرق .

كان عصرك مهرجانا « للرومانسية » بلغتْ فيه الذّروة ، وأوفتْ على الغاية ، وتألق فيه الأمراء « الرومانسيون » : « هوجو » و « دى فيني » و « جورج صاند » و « تيوفيل جوتييه » إلى نظرائهم الأعلام . . . وفى مقدمة هذا الركب الحافل خَفَقَتْ خُطَاك ، ولكنك لم تشأ أن تَبقى على غِرارهم ، رومانسىّ النزعة ، خالصاً لذلك كل الخلوص ، أو بالأحْرَى لم ترض عبقريتك الفذة أن تخضع لذلك الأفق وحدَه دون غيره من الآفاق .

رأيتَ « الرومانسية » إغراقا فى الذاتيـــة ، وانطلاقا إلى المثَالِيَّة ، وإرخاء لعِنَانِ التعبير عن الإحساس إلى الشأو الأقصى ، فألفيتَ ذلك كله عائقًا لك عن الضرب فى ميدان أعمق وأعمّ ، فرجعتَ تحاول الفَكَاكَ من قيود « الرومانسية » لتتصل بعالم الواقع ، تفهم الناس كما هم ، لا كما تهوى نفس الكاتب أن تراهم . فمزجتَ بين « رومانسيتك » وواقع الحياة . فكان مزاجا

طريفاً أرسيتَ به قواعدَ مذهبٍ جديد ، هو مذهب الفن القصصي الذي استعلى فيما تعاقبَ من العهود والأعصار .

ونحن أهل الشرق نزخر ميراثنا من الأدب العربي باللون « الرومانسي » الزاهي ، وإنّ تأثُّرنا بهذا الميراث العتيد يجعلنا نحيا في عصرنا الراهن « رومانسيين » أُصَلاء . ولكن الدنيا من حولنا ترتمي في عُباب الحقائق الواقعة ، فأحاط بنا الموج يدعونا أن نخوض الغِمار ، وإذا بنا نتلفت التماساً لمن يعيننا على مسايرة التيّار ، فلم نجدْ أصدقَ منك عوناً ، وأهدى سبيلا .

نحن قوم لا نستطيع أن نجافي نَسَبَنا العريق في « الرومانسية » ولكننا مع ذلك لا نملك التخلف عن ركب التطور الأدبيّ الذي انتهى إلى المذهب الواقعيّ . فكنا أحوج ما نكون إلى الخُطّة الوُسْطَى ، فوجدنا فيك مثالَها ، إذ أشْرَبْتَ « الرومانسية » روحاً من « الواقعية » فازدهر من بينهما نباتٌ جديد . . .

أيها الزميل الكريم :

لكأنك كنتَ بِظَهْرِ الغيب تُحِسُّ ماسيكون من ألفتنا لك ، وانجذابنا نحوك ، فعبَّرتَ لنا عن استجابتك لهذه الألفة وذلك الانجذاب ، إذ جعلتَ من نفسك أخاً رُوحيًّا « لهرون الرشيد » رمزِ الطابع الشرقيّ في أزهى عصوره .

حقا كان عهدك عهد تطلع الى الشرق ، وتشوُّف إلى اكتناه سحره الخلاب . . ولا ريب أنك عببتَ من أساطيره ماوسعك أن تَعُبَّ ، ولعلك التهبتَ شوقا إلى الحياة الشرقية بما حمله إليك من تراث الشرق رجال « نابليون » بعد عودتهم من أرض النيل .

عرفناك متعشِّقا « لنابليون » تتقصَّى أخباره وشئون أبطاله ، فهل استهواك مملوكه « رُسْتَم » فى لَبُوسِه المزركَش ، وشارته الطريفة ، وخصائصه الشرقية المتألقة ؟

وهذه البَعَثات المصرية التى نزلتْ يومئذ بلادَك ، وعاشت رَدَحا من الزمن بين مُوَاطنيك ، أكبرُ ظنى أنك قد ملأتَ منها عينك ، وأرْعَيْتَها سمعك ، وفتَنتكَ من طريف أخبارها وعجيب شخصياتها مافتَنَتكَ .

أيها الزميل الكريم :

لقد تميزت بين كتاب الغرب بتلك المَسْحَة الشرقية التى تجلتْ فيك ، ولم ينسَ لك الشرق هذه الوَشيجَة . وإذا لم يتمثل وفاؤه لك فى نَقْلِ معظم آثارك إلى العربية ، فإن أهل الشرق طلاَّعُونَ إليك فى لغتك ، يقرءون لك مفتونين بما كتَبْتَ ، ولعلهم يؤثرون الاستمتاعَ بروائعك فى تلك اللغة التى تحمل ألفاظها قوةَ رُوحك فى مَنْبَعها الفياض ، وحرارة فنِّكَ فى جوهره الأصيل !

قصة "حافظ"

لا جدال فى أن « حافظا » الشاعر قد نبُهَ ذكره على « حافظ » الناثر، ولكن نثره — وإن كان فى الواقع أقلّ روعة من شعره — قد احتفظ — بالرغم من ذلك — بمكانة عالية فى الأدب العربىّ الحديث . يشهد لذلك ثلاثة أعمال له ، الأول : رسائله التى كان يتبادلها هو وإخوانه الأدباء . وهى على قلة ما وصل إلينا منها تدل على مبلغ عنايته بالتعبير عن أفكاره الخاصة فى أسلوب عال جميل. وربما جاء من يكشف لنا الغطاء عن هذه الناحية المجهولة من حياة « حافظ » . والثانى : رواية « البؤساء » التى ترجمها بتصرف كبير عن « فيكتور هيجو » ، فى حُلّة عربية قشيبة تُحْتَذَى بلاغتها . والثالث : « سَطيح » . وهو كتاب قَصَصِىّ من مبتكرات فكره ، طبع فى سنة ١٩٠٦ ، وهو موضوع هذا الحديث .

نرى مما تقدم أن « حافظ إبرهيم » قد خَصَّ الفن القصصىّ

بمجهود يذكر فى نثره ما بين ناقل ومؤلف ، فإذا أضفنا إلى ذلك عملين لها خطوهما فى ديوانه ، وهما : « العُمَرية » و « جريح بيروت » وجدنا أن مكانة « حافظ » ككاتب قصصى فى أدبنا العربى الحديث لا يستطيع أن ينكرها أحد ، و « العُمَرية » قصيدة من نوع الملاحم ، روى لنا فيها سيرة « عُمَرَ بنِ الخطاب » ومآثره . و « جريح بيروت » قطعة تمثيلية قصيرة تحدث فيها عن المأساة التى وقعت فى « بيروت » عندما هاجمها الأسطول الإيطالى فى حرب « طرابلس » .

ولما كان الوقت لا يتسع أمامنا للتكلم عن جميع مآثره القصصية رأينا أن نقصر حديثنا على عمل واحد له ، هو « سطيح » .

و « سطيح » فى نظرنا يعتبر أدق تعبير عن مجهود « حافظ » فى فن القصة النثرية .

ولا بد لنا قبل الكلام على « سطيح » ، أن نأتى بمقدمة عن القصة فى عصر « حافظ » ، وقبله بقليل .

كان من مآثر عصر النهضة — الذى يمكن تحديده تحديدا عاما بدخول الفرنسيين « مصر » — أن ظهرت أخيرا القصة العربية الحديثة . وواجبُ الإنصاف يقضى بأن نقرر أن الأذهان فى

« سورية » تهيأت لمعالجة القصة قبلنا على أثر قدوم الإرساليات الدينية الإفرنجية وتشييدها المدارس والجامعات مقدمة إلى أدباء « سورية » لونا طريفا من الأدب الأوربي الجديد. فأول من كتب في القصة الحديثة إخواننا السوريون. وكان العامل الأكبر « محمد علي » قد أولى العلوم والصناعات عنايته ، فأرسل مختلف البعوث إلى « أوربة » ، فلما عادت تلك البعوث نشطت الحركة العلمية في « مصر » ، وخلقت جوا جديدا لنهضة علمية عملية . وكان للأدب نصيب في تلك النهضة ، ولكنه لم يكن بالكبير. فلما تولى « إسماعيل » العظيم ، وشمل الأدباء برعايته ، وخصهم بوافر عطاياه ، ازدهرت الحركة الأدبية وأينعت ، وظهر من أرباب الأقلام فوج جدير بالذكر والاعتبار . أضف إلى ذلك نزوح فئة من أدباء السوريين إلى « مصر » أرادوا أن يحتموا في ظل « إسماعيل » وينالوا من خيره . وكان احتكاك الشرق والغرب في ازدياد ، وهم « إسماعيل » الأكبر أن يصل بين الحضارتين ، ويجعل من « مصر » درة في جبين الشرق العربي تمثل ثقافة الغرب ومدنيته . وسرعان ما رأينا القصة ترفع هامتها على أكتاف طائفة صالحة من المترجمين والمؤلفين .

ولما كانت الثقافة العربية القديمة ما زالت متمتعة بنصيب وافر من السلطان ، أراد بعض القصصيين أن يوفقوا بين القصة الغربية والقصة العربية ، التى هى من الفن القصصى الحق فى حالة بدائية ، فكان نتاج ذلك شيئا يماثل المقامة . والمقامة فى ذلك العهد كانت تمثل القصة العربية فى الأدب العالى الرفيع ، لسموها لغة وأسلوبا عن قصص العوام ، أمثال « عنترة » و « أبى زيد الهلالى » وما ماثلهما . وإن كنا نعتبر هذه القصص العامية طريفة من ناحية الخيال والحوار اللذين هما من أصول القصة فى معناها الكامل . وقد سبق أن عالج هذا التوفيق بين القصة الغربية والقصة العربية « محمد المويلحى » فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

ولكى نفهم « سطيحا » حق الفهم ، يجب أولا أن نتمثل معنى المقامة . فالمقامة هى المجلس يجتمع فيه الناس حول محدث يتنقل بهم فى مختلف الشئون من علم وأدب وقصص وسير . وهذا المحدث فى الغالب من الأدباء المستجدين يتكلم بلغة فصحى ظاهر فيها التعمل والصناعة اللفظية . و « الهمذانى » من أشهر كتاب المقامات ، كتابه مجموعة حكايات قصيرة مسجوعة انتزعها من الحوادث التى وقعت له أو شاهدها أو تخيلها أثناء رحلاته الكثيرة

فى بلاد « خراسان » وما جاورها . وقد نسب روايتها إلى رجل سماه « أبا الفَتْح الإسكندرىّ » ، يمثل شخصية الأديب المستجدى فى ذلك العصر . ويظهر أن استجداء الأدباء كان أمراً ذائعاً . وكانت حِيَلهم معروفة لدى « بديع الزمان » . وقيل إن شخصية « أبى الفتح الإسكندرى » لم تكن غير شخصية « بديع الزمان » نفسه . والتشابُهُ بينهما تام من ناحية الاستجداء بالأدب وكثرة الارتحال من بلد إلى بلد . والمقامة تنتهى دائما بعبرة أو موعظة أو نُكْتة . وغايتها قبلَ كل شىء التفنن فى أساليب الإنشاء وتضمين الأمثال والحِكَم ، وسَرْدُ الطريف من الأوصاف . فلم يكن للفن القصصى فيها شأن يذكر . وهى بالاختصار مقال منمّق فى مختلف الموضوعات على صورة فَكِهَة مسلية .

وقد نشأت المَقَامة فى الأدب العربىّ من تأثر الحياة العربية وآدابها بحياة الفرس وآدابهم . واشتهرت طائفة من كتاب ذلك العصر بالترجمة من الفارسية . ومنهم « بديع الزمان » نفسُه .

ولْنَعُدْ الآن إلى « سَطِيح » ، فنقول إنه كُتِب على نَمَط المقامات ، تأثر فيه « حافظ » بما كتبه « المويلحى » فى حديثه « عيسى ابن هشام » . وهذا التأثر الشديد يبدو واضحاً فى الوضع الذى عالج فيه « حافظ » نواحى « سَطِيح » ، بل لقد بلغ تأثره بذلك

الكتاب أن أورد فى مؤلفه فصلا كاملا مما كتبه « المويلحى » فى حديثه . وهو الفصل الخاص بحديقة الحيوان التى كانت فيما مضى قصراً ومُتَنَزَّها « لإسماعيل » . ولم يُسَمِّ لنا « حافظ » بطله ، بل نَعَتَه بأحد أبناء النيل ، مع أن « المويلحى » استعار من كتاب « الهمذانى » اسم « عيسى بن هشام » .

و « سَطِيح » مجموعة قصص يرويها أحد أبناء النيل ، وهى ليست قصصا بالمعنى الذى نفهمه الآن من القصة . ويصح أن نعتبرها حوادث أو مشاهدات تكاد تكون كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولكنها على الرغم من ذلك تحمل طابعاً واحدا ، ولا سيما فى طريقة سرد القصة وأسلوبها . ولها بطلان مهمان : الأول : الراوى نفسه ، وهو أحد أبناء النيل كما أسلفنا القول . والثانى : « سَطِيح » .

أما شخصية الراوى فهى شخصية أديب بائس من رُوَّاد الإصلاح يرثى لأمته مما تعانيه من متاعب فى الأدب والسياسة والاجتماع . فينقُد أحوالها ويُنْحِى باللائمة على أهلها فى لهجة صريحة قاسية . وقد وصفه « حافظ » فى الكتاب على لسان « سطيحه » فقال : « أديب بائس ، وشاعر يائس ، كَهمته الكوارث ، ودَهَتْه الحوادث ، فلم تجد له عزما ، ولم تُصِبْ منه حزماً » .

وهو يخشى نفسه بلا مراء .

أما شخصية « سطيح » فهى شخصية حكيم صالح ، وقد أتى به المؤلف ، ليكون حكماً عدلا ، فيما يعرضه عليه الراوى وزملاؤه من قضايا العصر ، اجتماعية كانت أو أدبية ، فينطق بالقول الفصل ، فالراوى يعرض القضية ، و « سطيح » يحكم فيها . والراوى هو الذى يرتاد الأماكن ، ويلاقى الناس ، فيشاهد وينقد ويناقش ، فيفصح لنا عما يجيش فى صدره من آلام وآمال .

ولما كان « المُوَيْلِحىّ » قد اختار بطله من بين شخصيات العرب الروائية ، أراد « حافظ » أن يحذُوَ حذْوَه فى اختيار البطل الذى سمى به كتابه . فعاد إلى عصر الجاهلية يبحث بين دفائنه ، فعثر على كاهن صالح من العَرّافين ، يُدعى « سَطِيحاً » هو أقرب إلى شخصيات الأساطير منــــه إلى الشخصيات الحقيقية ، اسمه « رَبِيع بن ربيعة الذِّئبى أو الذئبى » ولقب بـ « سَطِيح » لأنه كان سَطِيحًا أى لاعظم له ، لا يستطيع الوقوف أو المشى . فإذا أرادوا نقله ، طوَوْه طىَّ الحصير . ولم يكن له رأس ولا عنق ، ولكن وجهه فى صدره . وقد تكهن بفتح الحبشة لليمن ، وبظهور الإسلام . ويقال إنه مات فى السنة التى ولد فيها النبىّ ، وولد فى السنة التى انهار

فيها « سدُّ مأرِب » عندما طغى عليه « سيل العرم » . أى عُمِّرَ نحو ستِّمائةِ سنة .

ومن الفائدة أن نأتىَ بمثال من كلامه ، فقد ذهب إليه « عبدالمسيح بن عمرو الغسانى » من قِبَل ملك الفرس، ليستطلعه رأيه فيما وقع « لكسرى » يوم ولادة النبي من خمود النيران ، وارتجاج الإيوان ، فلما رآه «سطيح » وكان يلفظ نَفَسه الأخير، قال : « عبدالمسيح ، على جمل مُشيح ، وافىَ إلى «سطيح» وقد أشْفَى على الضريح ، بعثك ملك « ساسان » ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران . . . الخ »

وهذا الأسلوب يدلنا على أنه من وَضْع المتأخرين ، تقليداً لسجع الكُهَّان ، إذ ليس فيه من بلاغة الجاهلية شيء

وقد وجدنا « حافظا » يُنْطِق « سَطِيحه » فى كتابه بهذا السجع ، ولكن فى ألفاظ منتقاة ، وأسلوب حسن .

ونحن إذا ألقينا نظرة إجمالية على الكتاب ، وجدناه قد جمع بين دفتيه الكثير مما كانت تتحدث به الصحف عن شخصيات ذلك العصر ، وما تعالجه من الموضوعات الشائعة فى ذلك العهد . فهو سجِل مهم يمثل لنا مَظْهَراً من حياة « مصر » فى حِقْبة من تاريخها . وهو يمثل فى الوقت نفسه جانبا من حياة « حافظ »

ونفسيته . فقد كتبه فى الفترة التى تلت خروجه من الجيش، وعودته من « السودان » ، على أثر اتهامه بالاشتراك فى الحركة الثورية التى يسميها فى كتابه بحادث الذخيرة ، وقد وقع هذا الحادث فى الجيش المصرى ، بعد إخماد الثورة المهدية ، واستعادة « السودان » .

هذه الفترة من حياة « حافظ » التى تَلَتْ خروجه من الجيش عانى فيها من شَظَف العيش الشىء الكثير . فرأيناه فى كتابه موتوراً ساخطا على الحياة ناقما على انحلال الأخلاق ، قاسيا فى الحكم على أهل وطنه ، شديد الوطأة على المحتلين وأعوانهم ، يملأ اليأس فراغ قلبه ، فلا يجد أمامه ملجأ يحتمى فيه غير الفضيلة والدين . فظهر بمظهر المصلح الحكيم ، ينثر المواعظ والحكم فى سخاء كبير .

هذا الجانب من حياة « حافظ » ، وهو جانب الرجل الناقم والمصلح الواعظ ، نجده واضحا فى شعره أيضا . ويكاد يكون لكل موضوع عالجه فى كتاب « سَطِيح » نظير له فى منظوماته . ولكن ديوانه أوسع مدى ، فقد تناول جوانب أخرى من حياته ، لا تجدها فى « سَطِيح » ، كغرامه بالشراب . أما الحب فلم يفصح « حافظ » عنه لا فى « سَطِيحه » ، ولا فى ديوانه . والظاهر أن حياته كانت خالية من المغامرات الغرامية ، أو أنه لم يتأثر بالحب إلى الحدّ الذى يدفعه للتعبير عنه نظما أو نثراً .

أما موضوعاته التي طرقها في الكتاب فكثيرة ، نأتي بالمهم منها فنقول :

لقد تكلم عن تحرير المرأة ، وتصدى للدفاع عن « قاسم أمين » . ثم أخذ يتحدث عن إخواننا السوريين ، فذكر مناقبهم ، وعدَّدَ أفضالهم على اللغة العربية . ونسب لهم بجانب ذلك بعض هنات بحسب رأيه . ثم يأتي دور الامتيازات الأجنبية ، فيقول فيها : « مادام امتياز الأجانب ، فلغير المصري عزة الجانب . الروميّ يطعُن بمديته ، ويستظل بِعَلَم دولته ، والمصري يحمل القتيل ، ويخضع خضوع الذليل » .

وقد تحدَّث عن الصِّحافة ، فذكر صحافة السوء بالسوء ، وقال على لسان أحد الصحفيين شاكيا : « فأنت اليومَ بين أمرين : إما الفضيلة والتَّقشف ، وإما الرذيلة والعيش » .

ثم يتكلم عن « شوقي » فينقُدُه في غير رحمة ، ثم يدافع عنه دفاع المستضعَف . ويترك الحكم أخيرا إلى « تَطيح » ، فيقول : « ولو انه مُنِحَ من دقة المباني ، مامنح من رقة المعاني ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذي أخْلَقَ ديباجته ، لكان شاعركم غير مدافَع ، وواحدَكم غير منازَع » .

هذا رأى « حافظ » فى « شوقى » فى ذلك العهد ، والظاهر أنه كانت بين الشاعرين منافسة أدت إلى شىء من التباغض . وقيل : إن « حافظا » كان يطمع فى التقرب إلى العرش ، وإلى دار الخلافة ، فلم يمكنه « شوقى » من ذلك لمكانته فى القصر الخديوى ، وصلته برجال الحكم من العثمانيين .

ثم رأيناه يتكلم بالخير كل الخير ، عن الإمام « محمد عبده » ، والزعيم « جمال الدين الأفغانى » . فيقول عن صلة الإمام بالإنجليز : « كم زحزح عنا حادثا ، ودفع كارثا ، ولو كان حيّا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى « دنشواى » ، لرأيتَ غير الذى رأيتَ من ذلك القِصاص . . . »

ولا ينسَى الجامعة المصرية ، فهو يحثّ المصريين ملحّا متحمسا على بذل الأموال فى سبيل إنشائها ، ولما كانت ثورة « السودان » سببا فى خروجه من الجيش ، فقد رأيناه يخصّها بثلاثين صفحة من كتابه ، مع أن الكتاب كله لا يزيد على مائة وخمسين صفحة ، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها مندّدا بالخَوَنة ، متحدثا عن بعض الشخصيات الكبيرة من الإنجليز ، منتقدا سياستهم أشد انتقاد ، ويعقّب على هذا بحديث عن المعتمد البريطانى « اللورد كرومر » والسياسة الإنجليزية فى القطر المصرى . وهو

يخصص لها أكثر من عشرين صفحة . وفى هذا الفصل ينقل للقارئ مقالا بأكمله للشيخ « على يوسف » نشره فى « المؤيد » عنوانه : « السياسة الضعيفة العنيفة » معناه أن المحتلين اضطروا إلى استعمال العنف ، ليستروا وراءه ضعف سياستهم ، فالإنسان إذا ضعف فى الحجة والرأى ، لجأ إلى القوة والعنف ، وهو لا يغفل فى هذا الفصل حادث « دنشواى » المعروف . و « حافظ » إذا تكلم فى السياسة وجدناه عنيف القول ، صريح الرأى ، غير مداج ولا محاب ، وهو الوطنى المتطرف ، الذى لا يطيق الذل لأبناء وطنه .

وفى الكتاب بضع صفحات لطيفة ، فى وصف الطبيعة والنيل والأسواق المصرية ، وشيخة الزار ، والراقصة ، وماشابه ذلك .

فعن شيخة الزار يقول : « تدخل على المقصورات فى القصور ، والمخدورات فى الخدور ، فتفتق بطبلها طبل آذانهن ، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن ، وتعمى بدخان البخور بخل أعينهن ... »

وحسبنا ماقلناه عن موضوعات الكتاب ، فهو على الجملة صدى لنفسية « حافظ » ، ومرآة صادقة لعصره .

أما إذا أردنا أن نوازن بينه وبين زميله « حديث عيسى بن هشام » فنلخص الرأى فى كلمتين : بينما نرى « المويلحى » يحاول الارتفاع

بمكتابه عن المقامة ، والنوع من القصة الفنية ، بما يرسمه من شخصيات ناضجة ، ويصوره من وقائع شائقة ، نرى « حافظاً » متمسكاً بالمقامة لا يخرج عن إطارها ، فهو لا يُعْنَى فى قصته بالناحية الفنية عنايته بالناحية الخطابية والوعظية .

أما لغة الكتابين فقصيحة ، تسير على النمط القديم ، سليمة خالية من التعقيد والألفاظ المهجورة . تقرؤها فيخيل لك أن المتحدثين يختاران ألفاظهما ، وينظمانها حبة حبة ، كما يتخير الجوهرى حبات ماسه ، وينظمها فى عقد ثمين . غير أننا نرى « المويلحى » يتبسط فى أسلوب حواره ، ويجد له جداً طبيعيا ، فتأتى جمله نابضة بالحياة ، تحمل طابعا محليا ، فى حين أننا نرى « حافظاً » شديد العناية بلغته من البداية حتى النهاية ، تغلب على أسلوبه لهجة البداوة العربية .

هذا ولما كان « سطيح » قد ظهر فى وقت لم يكن فيه للقصة نصيب وافر ، ومقام يذكر ، فإننا نعترف « لحافظ إبرهيم » بفضل السبق إلى المساهمة فى وضع أساس القصة الحديثة .

وفى هذا من التجديد ما فيه .